تولستوى واستنارة الذهن

بقلم : سير اشعياء برلين
ترجمة : صلاح عبد الصبور

كتب الناقد الروسى الشهير « ميخايلوفسكى » فى مقال له ، نشر فى منتصف سبعينيات القرن الماضى :

« هناك كلمة تقال عادة عن تولستوى ، وهى أنه كان كاتب رواية بالغ الكمال بقدر ما كان مفكرا رديئا » . وقد أصبحت هذه الكلمة كأنها مسلمة لا تحتاج الى توضيح ..

◆ السير أشعياء برلين : كاتب هذا المقال أستاذ علم الاجتماع والسياسة بجامعة أوكسفورد، وله مجموعة مقالات ، لم تظهر بعد فى كتاب ، عن بلنسكى وهزرن وغيرهما من نقاد الروس فى القرن التاسع عشر ، كما أن له كتابا عن « تولستوى »

وهذا المقال الذى نترجمه ، نشر فى عدد فبراير عام ١٩٦١ ، من مجلة « انكاونتر » الانجليزية ، التى يتولى تحريرها ستيفن سبندر وملفين لاسكى .

والواقع ، أن هذه الكلمة قد سادت النظرة الى تولستوى ، حوالى مائة عام ، دون ان تناقش ، بل لقد ظلت تعليقات « ميخايلوفسكى » نفسه عليها ، ومحاولته مناقشتها ، مهجورة نسبيا . حين استطرد الى أن فى هذه الكلمة ظلما لتولستوى ، فلم يكن تولستوى مفكرا رديئا ، بل لقد كان صفاء نظرته ونفاذها ، حين يتعرض لتحليل الأفكار لا يقلان عن صفاء تلك النظرة ونفاذها حين يتعرض لتحليل الغرائز أو الشخصيات . وقد يكون « ميخايلوفسكى » قد أبعد نوعا ما فى دفاعه ، ولكن جوهر هذا الدفاع يظل فى رأيى سليما ، أو على الأصح أقرب الى السلامة منه الى الخطأ ، وليست ملاحظاتى — من بعد — سوى استطراد يمتد من ملاحظات ميخايلوفسكى ..

ان آراء تولستوى ، هى فى العادة آراء ذاتية وواسعة الأفق فى آن واحد ، ومثال ذلك ملاحظاته عن شكسبير ، ودانتي ، وفاجنر . ولكن الأسئلة التى يحاول الاجابة عنها فى مقالاته الجدلية ، تتميز بطابع آخر ، انها اسئلة عميقة عن المبادىء ، والسؤال دائما طازج وعميق ، فى لهجته البسيطة العارية . والاجابة ذاتها تتميز بالرؤية المباشرة . وقد وهب تولستوى موهبة تحطيم سكينة نفسه ، وسكينة نفس قرائه ، فأحسن استغلالها الى أبعد مدى . وكانت عادته أن يلقى فى الحاح أسئلته البسيطة العميقة ، التى لم يكن — هو نفسه — فى ستينيات القرن الماضى وسبعينياته يجد لها الأجوبة الشافية ، ولعل هذا هو ما خلع عليه صفة « الفوضوى » أو « النهليست » . ورغم ذلك فمن المؤكد أنه لم يكن يرغب فى الهدم للذة الهدم . ولكنه كان يرغب متحرقا فى أن يعرف الحقيقة . وكم يكون هذا التحرق هادما لسكينة النفس عند أولئك الذين اختاروا أن يتجاوزوا حدود حكمة عصرهم من أمثال ماكيافيلى ، باسكال ، روسو ، مؤلف سفر أيوب فى العهد القديم .

لم يكن تولستوى يستطيع أن يتلاءم مع أية حركة اجتماعية فى عصره أو فى العصور التى سبقته ، انه لا ينتمى الا الى أولئك المتسائلين — على مدى الازمان — الذين لم يستطيعوا رغم تساؤلهم الملح أن يقتنعوا بالأجوبة التى وجدوها ، أو وجدها سواهم .

ذلك هو الجانب السلبى من أفكاره ، أما الجانب الايجابى الذى ظل يتناقص ما امتدت حياته ، فليس كل ما فيه ذاتيا فريدا . فبعضه ينتمى الى عصر الاستنارة فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ، والقليل القليل منه ينتمى الى الأفكار الروسية فى عصره . فلم يكن تولستوى ينتمى الى الاتجاهين الفكريين الكبيرين اللذين اقتسما الرأى العام المتعلم فى روسيا أيام شبابه ، لم يكن

تولستوى مثقفا راديكاليا ، عيناه مفتوحتان على الغرب ، كما انه لم يكن « سلافوفيليا » . بمعنى انه لم يكن مؤمنا بدولة ملكية مسيحية تؤمن بالقومية السلافية ، وتحافظ على الروح الروسى القديم ، كانت آراؤه تستعصى على ان تدرج فى هذين الاتجاهين جملة ، أما عند التفصيل فقد كان يؤمن — مثل الراديكاليين — بأن من الواجب أن يدان الطغيان السياسى ، والقوة العسكرية ، والتفاوت الاقتصادى ، وكل ما يتعارض مع المساواة بين بنى البشر . ولكن بقية زوايا النظرة « المستغربة » Westernising ، بل لب بنائها الفكرى — حين تؤمن بالمسئولية المدنية ، وبالعلم الطبيعى منفذا الى الحقيقة ، وبالاصلاح الاجتماعى والسياسى ، وبالديمقراطية والتقدم المادى ، وبالعلمانية ، كل تلك الدعوات لم توافقه . ولعله كان ينادى بالحرية الفردية ، وبالتقدم بالطبع ، ولكن وفقا لمفهومه الخاص . ولعله كان ينظر بغيظ الى « الحريين » والاشتراكيين فى عصره ، ولكنه كان يفيض كراهية للاقطاعيين ومفكريهم . وكانت قرابته الفكرية الحميمة من نصيب المفكر الفرنسى «روسو» حين رفض نظرية « الخطيئة الأولى » ، واعلن أن الانسان يولد بريئا ، فتلوثه المجتمعات السيئة ، وبخاصة معاهد التعليم ، ومثل روسو ألقى تولستوى اللوم على المثقفين ، على هذه الصفوة المزهوة من الخبراء ، هذه الصفوة المتذرعة بالسفسطة الخالية من الاحساس الانسانى ، المنعزلة بارادتها عن الحياة الطبيعية .

هؤلاء الرجال الدين حقت عليهم اللعنة لأنهم قد فقدوا أثمن هبة يملكها الانسان ، وهى المقدرة الفطرية على رؤية الحق ، ذلك الحق غير المتعدد ، اللانهائى ، الذى لا يجرؤ على القول بتغيره حسب الظروف والأزمان والأمكنة، الا الدجالون والسوفسطائيون — ذلك الحق الذى يبدو فى أجلى صوره لعيون أولئك الأبرياء الذين لم تتلوث قلوبهم : الأطفال والفلاحين . أولئك الذين لم تعم عيونهم نزعات الزهو والكبرياء ، أولئك البسطاء .. الطيبون .

والتعليم ، كما يفهمه الغرب ، يدمر البراءة . وذلك ما يجعل الأطفال يكرهون المدرسة بمرارة ، وباحساس غريزى ، حتى ليوشك المعلم أن يسقيهم المعرفة بالملعقة .

ولما كان الانسان ظامئا للحقيقة بطبعه ، فان شرط التعليم الحق هو أن يتقبله الأطفال والجهلة بشوق وتحفز . ولكى نفهم ذلك ، ثم نكتشف كيف نستجيب لهذا الفهم ، يجب أن يطرح المثقفون غرورهم ، وأن يبدأوا بداية جديدة ، بعد ان يطهروا عقولهم من النظريات السابقة . وعندئذ فحسب

يستطيعون أن يقيموا علاقة شخصية مع غير المتعلمين ، علاقة لا يستطيع توثيق عراها الا الانسانية والحب .

ويقول تولستوى ان روسو وحده ، فى الأزمنة الحديثة ، وديكنز الى حدما ، كانا هما اللذان أدركا هذه الحقيقة . ومن المؤكد أن أحوال الناس لن تنصلح ، ما لم يرفع عن أعناقهم بجانب نير البيروقراطية القيصرية ، نير أولئك المتشدقين بالتقدم أيضا ، أو الـ Progressists كما يدعوهم تولستوى ، وهم أتباع النظريات الخاوية من المثقفين المستغربين .

وما دام أولئك النظريون المتعصبون يهيمنون على حقل التعليم فان الطفل فى خطر . ان خطرهم أكبر من خطر قسيس القرية الغبى الساذج ، لأن هذا الغبى الساذج رغم قلة معارفه وندرة معلوماته يعامل الأطفال كبشر ، لا كما يعامل العلماء عيناتهم فى مختبراتهم العلمية . انه يفعل ما يستطيع . وهو عادة، رجل فاسد سيىء المزاج ، ظالم ، ولكن هذه النقائص كلها نقائص انسانية ، ولذلك فهى لا تدمر النفس ، كما تدمرها هذه المدارس الآلية الحديثة ..

* * *

هذه الأفكار هى التى جعلت تولستوى يشعر بالراحة والسعادة فى صحبة الرجعيين من أنصار النزعة السلافية أكثر من شعوره بالسعادة فى صحبة أنصار النزعة المستغربة .

فرغم أنه كان يعارض آراء أولئك السلافيين الا أنهم كانوا يبدون له أكثر ارتباطا بالأرض والفلاح والأسلوب التقليدى للحياة الروسية .

فهم ، على الأقل ، يؤمنون بأسبقية القيم الروحية ، وبعقم محاولة تغيير البشر بتغيير أكثر جوانب حياتهم زيفا وثانوية ، وهى النظم السياسية والدستورية . ولكن السلافيين كانوا يؤمنون كذلك بالكنيسة الارثوذكسية ، وبالدور التاريخى للشعب الروسى فى حماية المسيحية ، وبقداسة التاريخ كمظهر للعناية الالهية ، ومن هنا كان تبريرهم لكثير من السخافات ، ولكنهم كانوا ابناء ريف . ومن هنا كانت قرابتهم لتولستوى ، فان تولستوى لم يكن يفهم من طبقات المجتمع الا النبلاء والفلاحين . وكان فهمه للطبقة الأولى أوضح، وقد تقاسم تولستوى مع كثير من جيرانه معتقداتهم الغريزية ، وكان مثلهم يرفض كل اشكال لبراليه الطبقة الوسطى ، ونادرا ما تظهر البورجوازية فى رواياته ، ولا تختلف نظرته الى الانتخابات العامة أو حقوق المرأة أو الاخاء

العالمى عن نظرة « كوبت » أو « كارلايل » أو « بوردون » أو « د.هـ لورنس » بل لقد كان يشاطر السلافيين شكهم فى كل التعميمات العلمية أو النظرية ، وهذا الشك هو الذى خلق جسرا من العلاقات الشخصية بينه وبين سلافيى موسكو ، ورغم ذلك ، فان فكره لم يكن منسجما كل الانسجام مع وراثاته وعلاقاته الشخصية . فقد كان ذوو قرباه ، كمفكر ، هم فلاسفة القرن الثامن عشر . وكان مثلهم ينظر الى الدولة الابوية « البطريركية » الروسية ، والى الكنيسة الروسية ، التى يجلها السلافيون ، فيراها منظمة خبيثة متآمرة . كما كان مثل أولئك الفلاسفة ، الذين عرفهم عصر الاستنارة ، لا يبحث عن القيم فى التاريخ ، ولا فى الرسالات المقدسة للامم أو الثقافات أو الكنائس ، بل فى تجربة الفرد الذاتية الاصيلة ، وكان مثلهم أيضا يؤمن بالحق اللانهائى والقيم اللانهائية (بعيدا عن التاريخ) ، وكان يدفع بكلتا يديه تلك الأساطير الرومانسية عن تفرد الجنس أو الثقافة أو الأشخاص وامتيازهم . أما ذلك المضمون الهيجلى للتاريخ ، باعتباره تحققا ذاتيا للعقل الكامل ، وهو ذلك المضمون الذى تبناه السلافيون ، فقد رفضه تولستوى بكل اصرار . وظل يراه طيلة حياته ، ضربا من الهراء الميتافيزيقى المجلل بالضباب .

* * *

هذه النزعة الواقعية الصافية ، التى لا تساوم ولا تتنازل ، تبدو واضحة فى كتابات ويوميات وخطابات تولستوى فى شبابه وصباه . وتدعم هذا الانطباع ذكريات أولئك الذين عرفوه حين كان صبيا ، وحين كان طالبا فى جامعة قازان ، وحين يتحدثون عنه . كانت شخصيته محافظة بعمق ، وكان عقله هادئا ، منطقيا ، مستقيم التفكير ، وكان يواصل الجدل بمهارة دون خوف مهما قاده الجدل الى الحيرة أو الغموض أو المناطق المحرمة بحكم الدين أو القانون . وكان يرفض كل ما لا يثبت أمام ملكته النقدية . وقد هجر جامعة قازان لأنه اقتنع أن الأساتذة كانوا غير أكفاء ويشغلون أنفسهم بالموضوعات التافهة . مثلما اقتنع هلفتيوس وأصحابه فى منتصف القرن الثامن عشر . وقد احتقر تولستوى دراسة اللاهوت والتاريخ واللغات الميتة ، وكل فروع الدراسة الكلاسيكية ، واعلن انها مجموعة من المعطيات والقواعد لن يرغب رجل عاقل أن يعرف عنها شيئا . وقد غاظه التاريخ أكثر من أى مادة أخرى ، لأنه كان فى رأيه محاولة منهجية للاجابة عن اسئلة لم توجد بعد أن نتوخى عدم الاجابة على كل الأسئلة الحقيقية « ان التاريخ مثل رجل أصم يجيب على أسئلة لم يسألها أحد » .

وفى عام ١٨٦٠ ، وتولستوى فى الثانية والثلاثين من عمره ، قرر ان يحقق مذهبه الفكرى ، حين قرر أن ينشىء مدرسة يتبع فيهـــا أسلوبا جديدا فى التعليـــم .

كان تولستوى عندئذ يجتاز احدى أزماته الأخلاقية الدورية ، بعد أن جنى بعض الشهرة ، اثر اصدار كتبه « سباستبول » و « الطفولة » و « المراهقة والشباب » ، وبعض القصص الأقل طولا ، التى حازت اعجاب النقاد . وكان قد أصبح صديقا لمعظم كتاب هذا الجيل الفريد من أبناء وطنه : تورجنيف ، نكراسوف ، كونشاروف ، بانيف ، بسمسكى ، والشاعر فت . وكانت كتابته تثير انتباه الجميع بجدتها واستوائها وقوتها الوصفية المذهلة واصالة صورها ودقتها ، وكان البعض ينتقدون أسلوبه ويتهمونه بالرداءة والبربرية ، ولكنـــه بلا جدال الكاتب الذى يعد مستقبله بالكثير ، بين كتاب الشباب .

وكان زملاؤه من الأدباء يبدون بعض التحفظات حين يذكرونه . فقد كان حين يتردد على الصالونات الأدبيـــة لا يفرق بين صالونات اليمين وصـــالونات اليســار ، رغم أن بطرسبورج وموسكو كانتا تغليان بالخلاف بين المعسكـرين ، ولكنه لم يكن يبدو أنه يحس بانتمائه الى أحد التيارين . كان جريئا ، واسع الخيال ، مستقل الرأى ، ولكنه لم يكن « رجل أدب » ، لم يكن مهتما بمشاكل الأدب والكتابة بما فيه الكفاية فضلا عن الاهتمام بزملائه من الكتاب . كان قد قدم من عالم آخر ، أقل ثقافة ، وأكثر ارستقراطية وبدائية. ولكن ارستقراطيته لم تكن هى السبب فى أن زملاءه من الكتاب لم يكونوا يحسون بالحب لصحبته ، بل لعل السبب هو أنه لم يستطع أن ينسجم مع الحياة الأدبية التى يعيشهـــا الأدباء المحترفون والنقاد والناشرون ومحررو الصحف ، ولذلك لم يكن هـــذا الضابط الصغير يفتح قلبه للتجمعات الأدبية ، بل كان يبدو دائما متحفظـــا منحصرا فى داخل نفسه . وحين طلق تولستوى حياة الضابط الارستقراطى، بلياليها الوحشية ، وتزوج ، عاش كزوج مثالى ، لم يكن من همـــه أن يكون نجما لامعا فى الصالونات الأدبية ، فكان زملاؤه يعاملونه بنـــوع من الاحترام المتحفز ، وسرعان ما نشب الخلاف بينه وبين تورجنيف ، ولم يبق له صديق حقيقى الا الشاعر « فت » الذى كان سيدا ريفيا محافظا ، هو الآخر ..

* * *

كان الاحساس بالتناقض بين الحياة والأدب يعذب تولستوى . لقد جعله هذا الاحساس يشك فى صدقه ككاتب . لقد تأثر مثل الجيل الجـــديد من الروس ، ذوى الثروة والالقاب ، بحالة الفلاح التعسة ، وبدا له أن من الواجب

ان يعمل شيئا ، يجب أن يبدأ بضيعته ، فقد كان مقتنعا مثل فلاسفة القرن الثامن عشر بأن الناس قد ولدوا متساوين ، وحين مشوا فى الأرض ضاعت المساواة . فبنى تولستوى مدرسة لصبيان ضيعته ، وحين لم يجد فى نظريات التعليم السائدة فى روسيا حينئذ ما يقنعه ، قرر ان يرحل ليدرس المناهج الغربية نظرية وتطبيقا ، فاطلع على كثير من نظريات التعليم فى انجلترا وفرنسا وسويسرا وبلجيكا والمانيا . ولكن محادثاته مع ألمع رجال التعليم فى هذه البلاد، وملاحظاته للمناهج المختلفة فيها ، قد اقنعته أن التعليم الغربى لا قيمة له فى احسن الاحوال ، اذا لم يكن ملحقا للضرر بأولئك الأطفال الذين يتلقونه .

ولم يقم تولستوى طويلا بانجلترا ، ولم يكد يلقى بالا لمدارسها « الاثرية » أما فى فرنسا فقد وجد التعليم هناك آليا صرفا . فالأسئلة معدة من قبل ، وهناك قائمة بالتواريخ – مثلا – تحفظ عن ظهر قلب ، والاجابة عنها تكون عادة متوالية متتابعة ، ولكن نفس الأطفال لو سئلوا عن نفس الحقائق من زاوية أخرى لما استطاعوا الاجابة . فهم اذن لم يجنوا معرفة ما ، حتى أن أحدهم أجاب أن قاتل هنرى الرابع ملك فرنسا كان هو يوليوس قيصر . ان الطفل لم يفهم ، ولم يتنبه للحقائق التى القيت اليه ، وكل ما اكتسبه هو شحذ الذاكرة الآلية .

ولكن مثوى النظريات التربوية الحق هو المانيا ، والصفحات التى خصصها تولستوى للحديث عن مناهج التربية الألمانية تنافس الصفحات الشهيرة من روايته « الحرب والسلام » التى تهكم فيها تهكما وحشيا على الاستراتيجيين الألمان الذين كانوا يعملون خبراء فى الجيش الروسى .

ففى كتابه « ياسنايا بوليانا » الذى حوى مذكراته عن رحلاته التربوية ، يخصص تولستوى صفحات من الكتاب للحديث عن احدث مناهج تعليم الحروف الأبجدية فى المانيا ، تلك التى يتبعها اخصائى تلقى دروسه فى احدى حلقات البحث الشهيرة . ويصف تولستوى المدرس الواثق المزهو بنفسه ، حين يدخل قاعة الدرس ، ويلحظ بارتياح أن الأطفال قد جلسوا على مقاعدهم ، وقد بدت عليهم الطاعة والسكينة ، فى صمت مطبق ، كما تقضى القواعد الألمانية فى السلوك . وتطوف نظرته بالفصل ، وهو واثق من علمه أنه يعرف ماذا يستطيع هؤلاء الأطفال أن يفهموا ، ومن أية مادة صنعت أرواحهم ونفوسهم ، الى الكثير الآخر مما تعلمه فى حلقة البحث .. انه مسلح بأحدث وأصح مرجع فى البيداجوجيا ، واسمه كتاب « السمكة » Das Fichbuch ، وهو يحتوى على صور مختلفة للسمك .

وهو يسأل : ما هذا يا اطفالى الأعزاء ؟ .. ويقول أذكى الأطفال « سمكة » ويجيب المدرس : « لا . لا . فكر ! فكر ! » ولن يهدأ بال المدرس حتى يقول أحد الأطفال أن ما يرونه ليس سمكة ، ولكنه كتاب ، وعندئذ يسأل المدرس : « وماذا يحوى الكتاب ؟ » ، ويقول أكثر الأطفال جرأة : « كلمات » ، ويعقب المدرس فى لهجة حزينة : « لا ! لا ! انك لا تفكر فيما تقوله » ، وفى هذه اللحظة تكون عقول الأطفال قد تشوشت ، فليس لديهم أدنى بادرة عما يراد منهم أن يقولوا . بل لقد امتلأوا بالاحساس أن المدرس يطالبهم ان يقولوا شيئا لا يخطر على البال .. وتبدأ أفكارهم فى التبدد ، ويتساءل بعضهم فى سريرته، لماذا يضع المدرس نظارات على عينيه ، ولماذا ينظر من خلالهم ، ولا يتحدث اليهم مباشرة ، وهكذا . ويحثهم المدرس على تركيز تفكيرهم . ويظل يعذبهم حتى يجبرهم على القول أن ما رأوه لم يكن سمكة ، بل صورة ، وبعد مزيد من التعذيب يجبرهم على القول أنها كانت صورة تمثل سمكة ، فاذا كان ذلك هو المقصود ، فقد كان من الأفضل ـ كما يقول تولستوى ـ أن يحفظ الأطفال هذه الحكمة الخالدة ، وهى أن السمكة فى الكتاب ليست سمكة ، بل هى صورة تمثل سمكة ، أن يحفظها الأطفال عن ظهر قلب بدلا من التعذيب .

ان المنهج الألمانى فى نظر تولستوى يثير الغباء فى نفس الأطفال ، بدلا من اثارة الذكاء . فالأطفال الأذكياء يدركون أن اجابتهم تكون عادة خاطئة فى رأى المدرس ، فلا يجيبون ، بينما يتساءل الأغبياء الذين تحوز اجابتهم رضا المدرس : لماذا يتمدح المدرس بذكائهم ؟

ولا ينسى تولستوى فى آخر حديثه أن ينبهنا الى أن هذه الصورة للمدرس والمدرسة الألمانية ليست صورة ساخرة ، بل هى نقل أمين لما سمعه ورآه فى المدارس الألمانية الشهيرة ، وبعض المدارس الانجليزية (المحظوظة) التى استفادت من هذه المناهج المحدثة .

* * *

عاد تولستوى الى ضيعته الروسية ، مرتبكا منزعجا ، وشرع يعلم أطفال القرية بنفسه ، فى المدرسة التى بناها بعد ان طرح كل النظريات التربوية المحدثة محتقرا ، وطبع الكراسات الدورية ، واكتشف مناهج جديدة لتدريس الجغرافيا وعلم الحيوان والطبيعة ، واخترع أسلوبا جديدا للحساب ، وباختصار ، فقد تصرف كمالك أرض مستنير ، يتبع تعليمات روسو وغيره

من فلاسفة القرن الثامن عشر ، حتى لقد ملأت نظرياته وتجاربه فى التربية مجلدين ضخمين من طبعات كتبه قبل الثورة الروسية ، وما زالت تلك النظريات والتجارب كلها مثيرة جديدة حتى الآن . فضلا عما يحتوى عليه هذان المجلدان من وصف رائع للقرية الروسية ، وبخاصة للاطفال ، وبعض هذه المشاهد ضاحك ، وبعضها غنائى شاعرى ، وهو يرتفع فى هذه المشاهد الى مستوى فريد ، وبخاصة ، وقد كتبها فى الستينيات والسبعينيات ، عندما كان فى قمة قواه الخلاقة ، وفى كثير من الصفحات يختفى قصده التربوى وراء هذه النماذج المتعارضة الملتوية من الأفكار والانفعالات الريفية التى تجول فى نفوس الصبيان وقلوبهم ، وحيرتهم بين التحفظ والخيال حين يتحدثون أو يتصرفون، كما يصف تولستوى مناظر الطبيعة من حولهم وصفا رائعا خلابا .

* * *

ان العدو هو دائما ، الخبراء ، ومحترفو التدريس ، والرجال الذين يزعمون لأنفسهم حق توجيه الآخرين . والجامعات والأساتذة ما زالت هدفا صالحا للهجوم ، وهناك لمحات مبكرة من ذلك الهجوم فى الجزء المعنون بالشباب فى ترجمته الذاتية المبكرة لنفسه ، كان ذلك هو أثر فولتير وبنتام فى نفسه وتفكيره .وتلك هى نغمة القرن الثامن عشر ، ولكنها تبدو غريبة فى القرن التاسع عشر ، أنها تبدو جافة ، متجنية ، ثم هى ساخرة ، متحاملة ، وان كانت تبعث على الاعجاب . والهجوم كله مبنى على التناقض الواقع بين البساطة المنسجمة فى الطبيعة ، وبين التعقيدات الهدامة التى يصنعها خبث البشر وغباؤهم . وخاصة أولئك الضرب من الناس الذين يحس المؤلف بانفصاله عنهم ، والذين يصر على ألا يفهمهم ، ولا يقترب منهم ، وان يسخر منهم عن بعد .

وهنا تتضح بداية المحور الفكرى لتولستوى ، الذى نما حتى أصبح مسيطرا على تفكيره فى السنوات الأخيرة ، ذلك المحور هو أن الحل الوحيد لكل تناقضاتنا هو ان نرى ما أمامنا ، ما يلوح لوجوهنا . ان الاجابة امام أعيننا ، مثل ضوء النهار ، لو استطعنا فحسب ألا نغلق عيوننا ، وألا ننظر فى كل مكان الا الى حيث يجب أن ننظر ، ان الحقيقة تحدق فى عيوننا كما نحدق نحن اليها . الحقيقة الواضحة ، البسيطة ، القاهرة .

كان تولستوى يؤمن ــ مثل كانت وروسو ــ وكل من يؤمنون بالقانون

الطبيعى ، أن للبشر حاجات مادية وروحية أساسية ، لا تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة . فاذا أشبعت هذه الحاجات ، استطاع الانسان أن يعيش حياة منسجمة ، هى غاية الطبيعة من وجود الحياة . وفى نظره أن الاخلاق والقيم الروحية موضوعية وخالدة يتوقف على انسجام الانسان معها مدى سكينته النفسية . فضلا عن أنه كان طول حياته يدافع عن الرأى الذى لم يستطع أن يجلوه أوضح الجلاء فى رواياته وفصوله القصيرة ، ذلك الرأى القائل ان البشر يكونون اكثر انسجاما فى طفولتهم ، منهم حين تجتاحهم ظروف التعليم المدمرة فى حياتهم المقبلة . كما كان يرى كذلك أن بسطاء الناس ، كالفلاحين والقوزاق، ومن شابههم ، يتوفر لديهم ذلك البصر الطبيعى الصائب تجاه القيم الروحية الأساسية ، أكثر مما يتوفر لدى البشر المتمدينين . ذلك لأن مجتمعات الفلاحين تعيش فى وضع تجد فيه كل حاجاتها المادية والروحية . بوسائلها الخاصة ، رغم أن الطغاة والاقطاعيين يستعبدونهم ويسرقونهم ، بينما يحتاج أولئك الطغاة والاقطاعيون الى جهود الاخرين لكى يعيشوا .. يحتاجون الى جهود الخدم والعبيد والجماهير المستغلة . ان السادة يتطفلون على الاخرين. انهم لا يكتفون بالهبوط الى مستوى استعباد الاخرين وسرقتهم ، مع ما فى ذلك من مجافاة للقيم الروحية ، كالعدالة والمساواة والكرامة البشرية والحب ، بل هم ينحدرون فى المدى الطويل ـ لكثرة ما تعودوا الاعتماد على الاخرين ، والعيش على ثمرات النهب ـ الى ان يصبحوا عاجزين عن الاعتماد على النفس ، مزيفين ، لا يعرفون أين تكون حاجتهم النفسية ، بل واشرارا بائسين. ان المثل الأعلى البشرى هو مجتمع حر يتساوى فيه الجميع . حيث يعيش الناس ويفكرون مستهدين بنور الحق والصواب ، ولذلك فليس ثمة تناقض بينهم وبين الاخرين . وما هذا التفكير الا صورة بالغة البساطة ، من القانون الطبيعى ، سواء فى شكله اللاهوتى أو العلمانى أو اللبرالى .

ولتلك الصور نذر تولستوى حياته كلها ، سواء فى طور حياته العلمانى ، أو فى طورها الدينى . وقصصه الأولى توضح ذلك الارتباط بينه وبين فكرة القانون الطبيعى . فالقوزاقيان لوكاشكا و « العم بيروشكا » يبدوان كائنين أعلى واكثر سعادة وانسجاما من « أولينين » فى روايته « القوزاق » ، واولينين يعلم ذلك ، وهذا هو لب مشكلته . وعند « بيير » فى « الحرب والسلام » و « ليفين » فى « آناكارنينا » ذلك الاحساس ان الفلاحين أكثر منهما سعادة. وقد ظلت هذه الفكرة تملأ وجدان تولستوى ، حتى ظهرت فى أجلى صورها فى روايتيه « البعث » و « موت ايفان ايليتش » .

وكانت آراء تولستوى النقدية تدور دائما حول هذا المحور : التناقض بين الطبيعة والتصنع ، بين الصدق والاختلاق . وحين كتب تولستوى فى تسعينيات القرن الماضى مقدمة لترجمة روسية لأقاصيص موباسان ، وشرح فيها شروط الاجادة الفنية ، طالب جميع الكتاب فى المقام الأول ، بأن تكون لديهم الموهبة الكافية ، ثم ان يكون للموضوع الذى يتناولونه مغزى أخلاقى ، وأخيرا بأن يحسوا بالحب نحو ما يستأهل الحب مما يعرضون له ، وبالكراهية نحو ما يستأهل الكراهية . وأن يستعيدوا تلك الرؤية الخلقية البسيطة التى يتمتع بها الأطفال .

وبهذا المقياس تحدث تولستوى عن الأدباء الروس الكبار . ان تكراسوف مثلا يكتب عن موضوعات بالغة الأهمية ، ويملك موهبة فائقة ككاتب ، ولكن نظرته الى الفلاحين التعساء تظل نظرة زائفة . وموضوعات دستويفسكى لا تنقصها الجدية ، واهتماماته عميقة وأصيلة ، ولكن ينقصه الشرط الأول الى حد ما ، وهو شرط الموهبة . انه يعيد ويزيد فى كتاباته ، ولا يعرف كيف يقول الحقيقة مباشرة ، ثم يصمت . اما تورجنيف فهو كاتب رائع ، ذو موقف اخلاقى اصيل ، ولكن ينقصه الموضوع العميق الذى ينصرف اليه هذا الموقف الأخلاقى وتجول فيه هذه الموهبة . ان الموضوع يرتفع بالشكل ولكن الشكل لا يرتفع بالموضوع . واذا كان الموضوع صغيرا أو تافها فلا شىء يستطيع أن يرتفع بالعمل الفنى . وحين تؤمن بنقيض ذلك .. بأسبقية الشكل فى الأهمية على الموضوع ــ فمعنى ذلك أنك ستضحى بالحقيقة ، ثم ينتهى بك المطاف الى ان تقدم أعمالا أدبية مصنوعة . وتولستوى يستعمل كلمة « مصنوع » لتدل على اسوأ ما يعيب العمل الفنى . ان معنى كلمة « مصنوع » عنده هو ان العمل الفنى ملفق مزيف ، تنقصه التجربة والخيال .

ان الموهبة الحقيقية هى الرؤية ، الرؤية التى تكشف الحقيقة الموضوعية الخالدة ، ان الموهبة الحقيقية هى رؤية الحقيقة فى الطبيعة وفى السلوك البشرى ، مباشرة وتلقائيا ، كما لا يستطيع ذلك الا رجل موهوب (أو انسان بسيط أو طفل) .

* * *

والحقيقة سهلة الاكتشاف ، وحين تتبعها تصبح انسانا طيبا ، معقولا ، ومنسجما مع نفسك ومع الاخرين .

ورغم ذلك فمن الواضح أن مجتمع تولستوى لم يكن منسجما ، ولم يكن مكونا من أفراد منسجمين . ان من يدعوهم تولستوى البارونات والاساتذة ورجال البنوك ، يقفون ضد الأغلبية . الفقراء والفلاحين . وكل جانب يختلف مع الاخر ويسخر من قيمه الخلقية والروحية . وحتى أولئك الذين يتمتعون بالوعى لزيف حياتهم من مجتمع البارونات والاساتذة ورجال البنوك ، مثل شخصيات رواياته « اولينين ، وبيير ، ونيكليوف ، وليفين » لا يستطيعون أن يتركوا مجتماعتهم ، وان يندمجوا فى حياة الجماعة ، لكى يستعيدوا طهارتهم وبراءتهم . فهل تنقصهم الشجاعة رغم رؤيتهم للحق ، أم أن مجتمع الرجال المتمدينين قد اكتشف قيما خلقية وروحية أخرى ، اكتشف حقيقة جديدة لا يعرف الفلاحون والأطفال عنها شيئا .

وكان تولستوى يعلم ، انه هو نفسه ، ينتمى الى الأقلية .. الى البارونات ورجال البنوك والأساتذة ، لم يكن يستطيع ان ينكر ولعه بموسيقى موزار وشوبان ، وبشعر تويتشيف وبوشكين ، وتلك هى انضج ثمرات الحضارة . وكان يعلم حاجته الى الكلمة المطبوعة لبث آرائه ، وكل مستحدثات الحضارة الأخرى التى تؤدى بها الكلمة أو يترجم اليها الانفعال . ولكن ما فائدة بوشكين لصبيان القرية . وماذا جلب اختراع المطبعة للفلاحين من خير . انهم يقولون ان الكتب تعلم المجتمعات ، ولكن تولستوى يقول ان الكتب تخربها .

ويقال أيضا ان الكتب هى التى دعت الى تحرير الاقنان فى روسيا ، ولكن تولستوى ينكر ذلك ، فان الحكومة كانت ستجد نفسها مضطرة الى تحرير الأقنان ، سواء أصدرت تلك الكتب أم لم تصدر . ان رواية « توريس جودولوف » لبوشكين لا تستهوى الا تولستوى واضرابه ، بينما لا يجنى الفلاح من قراءتها شيئا ، هذا ان قرأها . ان الرسائل البرقية قد تنبئه بمرض أخته ، أو باعتلاء الملك أوتو الأول عرش اليونان ، ولكن ماذا تكسب الجماهير من اختراع « التلغراف » ، ومع ذلك فهم الذين يدفعون ثمن هذه المخترعات، وهم يدركون ذلك كل الادراك .

وحدث حين اجتاح وباء الكوليرا ارض روسيا أن قتل الفلاحون الأطباء لأنهم ظنوا أن الأطباء يسممونهم ، وقد كان ما فعلوه خطأ بلا شك ، ولكن ذلك القتل ليس حادثا عرضيا ، ان الحاسة والفريزة قد ألهمتا الفلاحين أن هؤلاء الأطباء ينتمون الى الأقلية الطاغية .

ان الحقيقة الأصيلة لا يعرفها الا البسطاء والاطفال ..

وهؤلاء الأشخاص العاديون ، هم الذين يعيشون حياة أقل متاعب ، وارفع الى حد كبير ، من حيوات الأثرياء الممزقة المهلهلة .

وهؤلاء الأشخاص العاديون ليسوا ناضجين ماديا فحسب ، بل روحيا أيضا ، فمنهم نبع الأدب الشعبى ، وهم الذين كتبوا الالياذة والتوراة .

* * *

والطفل أقرب الى « مثال الانسجام » من الرجل البالغ . كما كان الفلاح أقرب الى هذا المثال من ذلك المتحضر المهدم النفس ، ولكن هل نستطيع حين نعلم الطفل ان نتركه حرا ، ولا نمده الا بالمعرفة الواقعية ، دون منهج أخلاقى أو جمالى أو اجتماعى أو دينى . مجرد وضع الحقائق أمامه ، وتركه يستخلص دلالاتها بنفسه ، خوفا من أن نؤثر نحن عليه تأثيرا سيئا بنفوسنا المريضة وآرائنا الخاطئة ؟ ولكن هل يستطيع مجتمع بشرى ان يعيش دون أن تتكون علاقات بين الناس ، ودون أن يكون لهم مزاج مشترك ، وطريقة موحدة فى الحياة ، وسلم للقيم ، وتقدير واحد متقارب للخير والحق والجمال . وهنا يجب أن نعلم « المعلمين » لا « المتعلمين » ، حتى يستطيعوا حين يتركون الحرية للاطفال ، ان يوجهوا هذه الحرية ، بطرق غير مباشرة ، وجهة العدالة والواجب دون أن يفسدوا براءتهم وتلقائيتهم .

بين هذين القطبين ، كان تولستوى يتحرك طوال حياته : الواقع والطبيعة من ناحية ، والواجب والعدالة من ناحية أخرى .

وكان هذان المحوران هما طريق الحيرة ، لا لتولستوى وحده ، بل لجيل المثقفين الذين قرروا أن « يعودوا » الى الناس فى روسيا القيصرية فى أواخر القرن الماضى . لم يكونوا يعرفون هل تكون مهمتهم أن يعلموا الناس أو يتعلموا منهم . ولم يكونوا يعرفون ماذا يريد الناس حقا . أم ان الناس لا يريدون ، بل ينبغى ان يراد لهم ، ولكن تولستوى يمتاز بأنه جعل الحقيقة أعلى من كل القيم والاهداف ، وضحى بكل ما يملك فى سبيل السعادة والصداقة والحب والسلام ، بل وضحى بحياته أيضا ، وكان كل ما استرده لقاء هذا البذل الكبير ، هو الشك ، وعدم اليقين ، واحتقار النفس ، والتمزق بين المتناقضات فهو اذن بطل شهيد . بل لعله أغنى رجال اوربا الذين عاشوا نهضتها بالمواهب والسليل الأصيل لعصر التنوير ، ومن تقاليد هذا العصر الزاهر تنبع أفكاره الخالده .